سقوط نظام سياسي أم سقوط دولة

سقوط إسياس أفورقي .. هل هو سقوط نظام سياسي أم سقوط دولة ؟!

بقلم : محمود عثمان إيلوس



لم أقل إذا (سقط) إسياس أفورقي؛ وإنما أقول (سقوط) إسياس أفورقي، لأنه لا محالة زائل بحياته أو مماته، عسراً و يسراً، بحكم سنن هذا الكون الذي بني على التدوال والتزواج، سالباً وموجباً، بداية ونهاية، ماضياً ومستقبلاً، جيل يمضي وجيل يأتي، وحكمة الخالق اقتضت أن تلتقي الأجيال في برزخ زمني يعرف بالحاضر ليس لمحاكمة الماضي فحسب؛ ولكن لاكتساب خبرة النظرة الصحيحة إلى المستقبل، فكل أمة تقرأ التاريخ لمحاكمته وليس للاعتبار بسننه تعاكس حركة الانتقال للمستقبل، لكونها تستشرف مستقبلها بمعطيات الماضي وليس بتحديات المستقبل زماناً ومكاناً، علماً ومعرفة. فإرتريا التي لربما أمكن حصر عدد خريجيها من الجامعات في سبعينات وثمانيات القرن الماضي قلة، ها هي اليوم تزخر بنسب عالية من حملة التعليم الجامعي وفوق الجامعي، بيد أن مقومات الفكر السياسي والبناء الرأسي فيها في انحدار مستمر إلى درجة يغيب فيها النظر إلى أفق المستقبل، والمقال هنا لا يخوض في ثنايا المقارنات ولا يهدف إلى مناقشة حقيقة إسياس أفورقي وعداوته لبقاء الكيان الإرتري، إذ لم يصبح بقاء إسياس أفورقي أو رحيله منطقة الخلاق، بل بقاؤه يمثل بقاء السرطان في الجسم المصاب، فهو مصدر انهيار مقومات إرتريا بل وربما الزوال، وإن رحيله بل ومحاكمته فوراً كان يمثل أحد أوجه كرامة الإنسان الإرتري؛ ولكن كل ذلك يظل في مقام رغباتنا المجردة عن المقومات.

سقوط إسياس

خطورة إسياس أفورقي أنه وضع كلمة السر لتشكل الكيان السياسي الإرتري ما بعد الثورة الإرترية، حيث دخل بملفاته ورؤاه السياسية والفكرية من الميدان إلى أسمرة دون بعثرتها، ومن ثم صنع علاقات تجانس جيوثقافية وقومية مع نخب الحكم التجراوية الحاكمة في إثيوبيا ونقل ملفات إرتريا من بيت الاستعمار الإثيوبي إلى أسمرة، فضلاً عن أنه رجل متمكن من قراءة نفسية وسياسية لواقع القوى المؤثرة في المنطقة محلياً وإقليمياً ودولياً، لذلك ظل مؤثراً حرباً وسلماً في ملفات السودان، يشعل حرباً ويخمدها حسب مصالحه واستراتيجياته، مثلما يكون له حضور في مشكلات الخليج العربي بقدر استفادته السياسية والاقتصادية والتجارية.

وفي مقابل ذلك تمكن إسياس أفورقي من إحراق ملفات القوى السياسية الإرترية الأخرى، وإن أقوى سلاح استخدمه كان : نزع الاستقرار عن إرتريا وفرض حصار أبدي على عودة العقول وقيادات الثورة الإرترية ومن ثم فقدان الذاكرة والتجارب التاريخية الإرترية التي خاضها المجتمع الإرتري في أخصب مراحل نموه السياسي والثقافي وفي مراحل بناء وطن إرتري مستقل خلال قرن كامل (القرن العشرين)، وملفات الأربعينات، وملفات الثورة الإرترية بتجاربها وتكويناتها السياسية والعسكرية بكل انتصاراتها وانكساراتها، لم تكتب إلا تحليلات وتحيزات واجتهادات لأن مذكراتها إما ماتت في صدور صناعها أو تبعثرت في بلاد اللجوء أو أصبحت نهباً لمداهمات الأمن في بلاد الاستقرار العربي.

لقد فطن الراحل محمد سعيد ناود إلى خطورة ذلك، فترك ما لم يكن ليدك من أمر الصراع، وتفرغ لملاحقة العمر الكتابي، حينما رأى أن إرتريا محاصرة من قبل إسياس أفورقي وجيوثقافته القومية، فأصدر عشرات الكتب عن إرتريا ومحيطها الإقليمي في فترة قياسية من ضمنها (تاريخ حركة تحرير إرتريا)، بيد أن عدداً كبيراً انشغل بالكر والفر السياسي في المعارضة، حيث رحل - مثلاً - حامد صالح تركي وهو يمتلك أسرار تقلبات الساحة الإرترية وتفصيلات مواليد الحركة الإسلامية الإرترية. ومثل ذلك : (محمد إسماعيل عبده، وعبد الله إدريس محمد، وأحمد ناصر، وآدم صالح شيدلي، ومن قبلهم إبراهيم سلطان وإدريس محمد آدم) رحمهم الله جميعاً.

دخلت إلى المكتبة الخاصة للمناضل آدم صالح شيدلي في نهاية التسعينات بعد أن أولاني ثقة كاملة، فوجدت أرشيفاً مرتباً ومذكرات يومية بكل تفاصيلها،

الأمر الذي أذهلني وأنا أقف أمام رجل بسيط ! استأذنته في استخلاص ما كان يلي بحثي، ومن ثم تعاهدنا أن تنظم تلك المذكرات بكل تفاصيلها وتصدر في كتاب كبير، بل وقد أبديت رغبتي أن أكون أحد المساهمين في صياغتها وسياقها للكتاب، وما ظننت أن التباعد الجغرافي سيتحكم علينا طويلاً وأن الآجال تأتي دون حسابنا الزمني.

ومثل ذلك أقول عن مخطوطة مذكرات إدريس هنقلا - رحمه الله - الذي لم أتشرف بمقابلته، وقد قرأت مذكراته بعد استشهاده، وهي مذكرات في غاية الأهمية.

تلك نماذج ولو أن كل واحد منا قدَّم إحاطات أخرى بنماذج أخرى لما انتهينا إلا إلى إدراك خطورة فقدان الذاكرة وفقدان الإستراتيجية وفقدان البوصلة التي استدرجنا إليها قوة وخدعة نظام إسياس أفورقي، إلى درجة أن رأينا العام اليوم تذروه مجرد الإشاعة والفتنة وعصبيات الانتماء التكويني وليس العمق الفكري والمعرفي : فمنا من يعمم الحالة فيتصور أن المشكل الإرتري نتاج لصراع ثقافي قومي (مسيح تجريني - عرب إسلامي) لن يتم حله حتى بزوال إسياس أفورقي، ومنا غير ذلك يتصور أن مصدر المشكلة هو إسياس أفورقي وما أحيط به من برنامج سر علني عبر عدة عقود، وأن أحد مقومات الحل هو إزالة نظام إسياس أفورقي فوراً.

وحسب اعتقادي - ولأن هذه مسألة جوهرية ساهمت بشكل خطير في تخلف بناء البديل السياسي المعارض، وغياب النظرة السياسية المستقبلية المتزنة - يجب علينا إحسان قراءة أحداث الساحة الإرترية، فإسياس أفورقي مع كونه رجل التجرنية الأول؛ إلا أنه حمل برنامجاً يتعدى خصوصيات الهيمنة التجرينية ومشروعات تجراي تجرنية، لم تنكشف بعد أسرار ذلك البرنامج.

لست أنا ولا هذا المقال مقام إبراز حقائقه، لأنني بكل بساطة قارئ للأحداث وما بين سطورها وفق القرائن، ولست من يمتلك حقائقها القاطعة، فلنراجع تاريخ الجبهة الشعبية في حد ذاتها :
- ألم تمثل تصفيات (المنكع) الأساس الذي بنى عليه إسياس أفورقي منهج التفرد والإمساك بزمام الأمر داخل قوات التحرير الشعبية ومن ثم الجبهة الشعبية، صعودا إلى رجل الدولة الإرترية الأول والأخير بعد التحرير والاستقلال ؟